مركز دراسات الوحدة العربية

٣٢

أوراق عربية

سِيَرٌ وأعلام (١٢)

جبران خليل جبران

الدكتور فؤاد المرعي

جبران خليل جبران

مكتبة
الفكر الجديد

٣٢

أوراق عربية

مركز دراسات الوحدة العربية

سِيَرٌ وأعلام (١٢)

جبران خليل جبران

الدكتور فؤاد المرعي

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد مركز دراسات الوحدة العربية

المرعي، فؤاد

جبران خليل جبران/ فؤاد المرعي.

٣٢ ص. ـ (أوراق عربية؛ ٣٢. سِيَرٌ وأعلام؛ ١٢)

ISBN 978-9953-82-552-6

١. جبران، جبران خليل. أ. العنوان. ب. السلسلة.

928.927

العنوان بالإنكليزية

Jubran Khalil Jubran

Fouad Mera'i

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية»

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣
الحمراء ـ بيروت ٢٤٠٧ ٢٠٣٤ ـ لبنان
تلفون: ٧٥٠٠٨٤ ـ ٧٥٠٠٨٥ ـ ٧٥٠٠٨٦ ـ ٧٥٠٠٨٧ (٩٦١١+)
برقياً: «مرعربي» ـ بيروت، فاكس: ٧٥٠٠٨٨ (٩٦١١+)
e-mail: info@caus.org.lb
Web Site: http://www.caus.org.lb

الطبعة الأولى

بيروت، أيلول/ سبتمبر ٢٠١٢

المحتويات

أولاً: مهاجر يحمل الوطن في قلبه

١ ـ الطفولة (بشرّي ـ جبل لبنان)

لم يكن جبران خليل جبران ممّن تتلخص حياتهم بعبارة «وُلد، فعاش، فمات»، فالأعوام التي عاشها ضمّت في خلال عمر واحد، قصير نسبياً، أعمار أجيال سبقته وأعمار أجيال عاصرته، وأضاءت الدرب لأجيال ستأتي بعده.

ثمانية وأربعون عاماً، أوّلها في بشرّي (لبنان) وآخرها في نيويورك في الولايات المتحدة الأمريكية: من ٦ كانون الثاني/ يناير ١٨٨٣ إلى ١٠ نيسان/ أبريل ١٩٣١ ـ تلك هي الفسحة التي منحها القدر لجبران ليقول ما قال، ويكتب ما كتب، ويرسم ما رسم، إنها فسحة قصيرة جعل منها جبران، بموهبته وسعيه الدائب نحو الحق والخير والجمال، علامة مميزة، فكراً وتصويراً وأدباً، في تاريخ الثقافة العربية.

ولد جبران في بلدة بشرّي (في شمال لبنان) التي كانت آنذاك تابعة لمتصرفية جبل لبنان العثمانية، في أسرة صغيرة رقيقة الحال ـ أبوه، خليل سعد جبران، قروي بسيط، خشن الطباع، كان يمضي أوقاته في شرب الخمرة ولعب الورق. أما أمّه، كاملة رحمة، فمن عائلة ذات خلفية دينية، وقد تلقّت عناية ماديةً وثقافيةً وعاطفيةً. وبعد وفاة زوجها الأول الذي أنجبت منه ولدها البكر بطرس، وإبطال زواجها الثاني، تزوجت خليل جبران، وأنجبت منه جبران وشقيقتيه ماريانا وسلطانة.

قضى جبران طفولته في بلدة بشرّي الغنية بجمال طبيعتها الذي اغترف منه ثروة رافقته طول العمر. لم يذهب إلى المدرسة لأن والده لم يكن مهتماً بذلك. غير أنه تعلّم العربية وتدرب على الرسم والموسيقا بفضل رعاية أمه

وتشجيعها، فتتلمذ في العربية والسريانية على يد الأب جرمانوس. وعلّمه الأب سمعان، كاهن البلدة، القراءة والكتابة. ولاحظت أمه ميله إلى الرسم فأهدته ألبوم لوحات لليوناردو دافنشي ترك في نفسه أثراً عميقاً عبّر عنه بعد سنين طويلة بقوله: «لم أر قطّ عملاً لليوناردو دافنشي إلا وانتاب أعماقي شعور بأن جزءاً من روحه تسلل إلى روحي».

لقد تركت أمه بصمات عميقة في شخصيته، عبّر عنها في **الأجنحة المتكسرة** بقوله: «الأم هي كل شيء في هذه الحياة، هي التعزية في الحزن، والرجاء في اليأس، والقوة في الضعف، هي ينبوع الحنو والرأفة والشفقة والغفران، فالذي يفقد أمه يفقد صدراً يسند إليه رأسه، ويداً تباركه، وعيناً تحرسه».

عاش جبران سنوات طفولته غير مكترث بالشجارات التي كانت تنشب بين والديه بسبب الفقر واستهتار الوالد، فهمّه الأساس كان تأمُّل طبيعة جبل لبنان واستيعاب سحر أعاليه وأغواره، وتحسس جماله وجلاله، فاغترف من ذلك كلّه مؤونة تجلّت في رسوماته الأولى التي كان يخطّها على الجدران بقطعة فحم، وفي كل ما نثره بقلمه وصوّره بريشته... بلباقة الفنان الأمين لفنه، وسخاء الشاعر المثقل بالشعور.

في عام ١٨٩١ حلّت كارثة بالأسرة غيّرت مجرى حياتها؛ فقد ألقت السلطات العثمانية القبض على والد جبران بسبب لامبالاته وسوء إدارته لأموال الضرائب التي كان مكلفاً بجبايتها، وأُدين وأُودع السجن وجُرّد من كل ما يملك، واضطرت الأسرة إلى بيع منزلها والإقامة عند بعض الأقارب... ولكن والدة جبران قررت أن الحلّ الوحيد لمشاكل العائلة هو الهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية سعياً وراء حياة أفضل، وهكذا كان.

٢ ـ المراهقة والشباب (بوسطن ـ بيروت ـ باريس)

في عام ١٨٩٤ هجرت أسرة جبران لبنان إلى بوسطن في الولايات المتحدة، واستقرت في الحي الصيني الفقير.

تعرّف جبران في بوسطن على الأمريكي «فرد هولاند داي»، وهو ثري مهتم بالفن والثقافة، لكنه كان غريب الأطوار، لا تدعو سمعته إلى الارتياح. أعجب داي بموهبة جبران في فن الرسم وقدّمه إلى الأصدقاء المترددين على صالونه. غير أن زيارات جبران المتزايدة لداي وأصدقائه، وغيابه المتكرر عن البيت ليلاً، ووقوعه في هوى زوجة تاجر في الثلاثين من عمرها، وتعلّقه بامرأة أخرى من قبلها، أثار قلق العائلة، فقررت أمه إعادة ابنها المراهق إلى لبنان.

لم يعترض جبران على قرار أمه، فعاد إلى بيروت في ٣٠ آب/ أغسطس من عام ١٨٩٨ وهو يتكلم لغة إنكليزية ضعيفة، ويكاد ينسى اللغة العربية. وما إن وطئت قدمه أرض لبنان حتى هرع إلى بشرّي لملاقاة أبيه وأقاربه وأصدقائه الذين توافدوا لرؤية «الأمريكي»، وكان من بينهم أستاذه الطبيب الشاعر سليم الضاهر الذي نصحه بمتابعة الدراسة في «مدرسة الحكمة».

أمضى جبران في مدرسة «الحكمة» ثلاث سنوات، درس فيها، وفق برنامج خاص، اللغة العربية، وتعرّف بإشراف أستاذه الكاتب المسرحي والشاعر الأب يوسف حداد، على ابن خلدون والمتنبي وابن سينا وشعراء الصوفية، وسرعان ما أتقن التعبير باللغة العربية وكتب أولى نصوصه بها، وتعلّم الفرنسية وأخذ يقرأ آدابها. ويتذكر جبران أن تلك المدرسة كانت صارمة، وأنه لم يكن يمتثل لمعلميه، وأنه كان يغطّي كتبه ودفاتره برسوم كاريكاتورية لأساتذته.

في مطلع عام ١٩٠٠ تعرّف جبران على يوسف الحويّك، وأصدرا معاً مجلة **المنارة** يحررانها معاً، ويضع جبران رسومها منفرداً. وقد ظلّ الاثنان يعملان فيها حتى أنهى جبران دروسه بتفوّق واضح في العربية والفرنسية والشعر عام ١٩٠٢، وقفل عائداً إلى أمريكا.

تزامنت عودة جبران إلى أمريكا مع وقوع جملة من الأحداث المفجعة على صعيد الأسرة، فقد توفيت أخته سلطانة قبل وصوله إلى بوسطن، وترك أخوه بطرس المتجر الذي كان يعمل فيه ليشتغل في التجارة في كوبا، ولكنه سرعان

ما عاد مصاباً بمرض السلّ ليموت بعد أيام قليلة من عودته في ربيع عام ١٩٠٣، وماتت أمه في صيف العام نفسه بعد عملية جراحية فاشلة لاستئصال ورم سرطاني. وهكذا وجد جبران نفسه مسؤولاً عن شؤونه وشؤون شقيقته الباقية على قيد الحياة ماريانا.

كانت بوسطن في ذلك الزمن مركزاً فكرياً ناشطاً اجتذب الفنانين والمفكرين الكبار والمبتدئين على السواء. وكان بعض هؤلاء راغباً في الانعتاق من أسر المادية الرأسمالية الطاغية، والبحث عن سبل فنية وفكرية جديدة في ميثولوجيا الشرق وحضاراته وعلومه الباطنية والروحية. وغاص جبران في هذا المجتمع البوسطني الذي ازدهرت فيه الحركات الصوفية، ومن أشهرها حركة «الحكمة الإلهية» التي أنشأتها عام ١٨٧٥ الروسية هيلينا بتروفنا بلافانسكي، فاكتشف أن الروحانية الشرقية التي تسكنه يمكن أن تجد تربة خصبة في هذه البيئة المتعطشة إلى الصوفية.

أنجز جبران في ربيع عام ١٩٠٤ مجموعة من اللوحات الرمزية عرضها في معرض «داي» فنالت إعجاب الكثيرين، ولكنه لم يبع سوى القليل منها، فدفعه ذلك إلى الالتحاق بعمل مقابل دولارين في الأسبوع، يرفد به دخله. فعمل عند صحفي لبناني شاب اسمه «أمين غريب» الذي كان يصدر في نيويورك جريدة **المهاجر**، ثم شرع جبران يكتب في تلك الجريدة زاوية منتظمة بعنوان «أفكار»، غيّره فيما بعد إلى «دمعة وابتسامة»، وذلك بعد أن دمّر حريق مبنى معرض «داي» في خريف العام نفسه، وأتى على موجوداته كلها، بما في ذلك رسوم جبران الذي وصف الحريق بقوله: إنه مشهد جديد في التراجيديا التي يعيشها منذ سنتين.

ومنذ ذلك الحين أصبح جبران يكتب أكثر مما يرسم، وراح ينشر كتاباته في الصحف، ثم يصدرها على شكل كتب، كان أولها كتابه **الموسيقا** الذي نشرته دار المهاجر عام ١٩٠٥ في نيويورك، وآخرها كتابه **التائه** الذي صدر باللغة الإنكليزية بعد وفاته. وكان مما زاد اهتمامه بالكتابة تعرّفه في ذلك العام إلى السيدة ماري هاسكل، وهي امرأة مستقلة في حياتها

الشخصية، وتكبر جبران بعشر سنوات. لقد كان لهذه المرأة دور كبير في حياته، فهي التي شجّعته بإلحاح على الكتابة باللغة الإنكليزية مباشرة، فلاقى ذلك صدى في نفسه لأنه لم يكن راضياً عن كتابته باللغة العربية التي لا يقرأها سوى عدد قليل من المهاجرين، وهي التي موّلت رحلته إلى باريس عام ١٩٠٨ لدراسة الفنون.

انتسب جبران، بعد وصوله إلى باريس بوقت قصير، إلى «أكاديمية جوليان» التي تخرّج فيها فنانون كبار، بينهم «ماتيس» و«بونار» و«ليجييه»، وانتسب طالباً مستمعاً إلى «كلية الفنون الجميلة». وكان يقضي أوقات فراغه ماشياً على ضفاف «السين» ومتسكعاً ليلاً في أحياء باريس القديمة برفقة صديقه يوسف الحويّك الذي التقاه ثانية، وقضى معه سنتين في «عاصمة النور» التي ظلت روحه، بحسب تعبيره، تعود إليها وتتيه بين بيوتها، فيستيقظ كل صباح وهو يفكر في تلك الأيام التي أمضاها مع صديقه بين معابد الفن وعالم الأحلام.

لم يستطع أسلوب التدريس في «أكاديمية جوليان» إرضاء روح جبران الرومانتيكية المتمردة الراغبة في حرق المراحل، والنهمة إلى المعرفة والإبداع، فتركها في عام ١٩٠٩، ليتتلمذ على يد الرسّام الفرنسي المعروف بيير مارسيل بيرونو الذي وصفه بقوله إنه «فنان كبير ورسّام رائع وصوفي»، لكنه ما لبث أن ترك أستاذه الجديد ليعمل وحده في مرسمه بملء حريته، وليمتلك ما يشاء من الوقت لزيارة معارض باريس ومتاحفها، ولا سيما متحف اللوفر الذي كان يمضي ساعات طويلة متجولاً في قاعاته الفسيحة.

كانت باريس في ذلك الوقت مكان اجتماع عدد كبير من دعاة الاستقلال السوريين واللبنانيين المطالبين بحقّ تقرير المصير للبلدان العربية الواقعة تحت الحكم العثماني، ومنح العرب حقوقهم السياسية والاعتراف باللغة العربية لغة رسمية في الدولة العثمانية. وقد تردد جبران على هذه الأوساط وتشرّب بأفكارها، وبدا في تلك الفترة دائم الشك، طَموحاً، وحالماً، يتصور أنه يستطيع إعادة تكوين العالم، وساعياً إلى إقناع الآخرين

بأفكاره ونظرياته حول الفن والطبيعة، وقلقاً، كثير التدخين، وقارئاً نهماً، أعاد قراءة «جِيد» و«ريلكه» و«تولستوي» و«نيتشه»، وكتب بالعربية نصوصاً وعظية حزينة تُشتمّ منها رائحة ذلك الحنين الدفين إلى مرابع الطفولة الذي برز واضحاً في رسالته إلى ماري هاسكل حين بلغه خبر موت والده عام ١٩٠٩: «فقدت والدي. . . مات في البيت القديم، حيث ولد قبل ٦٥ سنة. . . كتب لي أصدقاؤه أنه باركني قبل أن يسلم الروح. لا أستطيع إلا أن أرى الظلال الحزينة للأيام الماضية عندما كان أبي وأمي وبطرس، وكذلك أختي سلطانة، يعيشون ويبتسمون أمام وجه الشمس». . .

كان جبران، على الرغم من النجاح الذي حققه في الوصول إلى أشهر معارض باريس السنوية، «معرض الربيع»، حيث عرض لوحة عنوانها «الخريف»، وعلى الرغم من دعوته رسمياً إلى المشاركة في معرض الاتحاد الدولي للفنون الجميلة، يشعر بالقلق وعدم الاستقرار، فترك باريس عائداً إلى الولايات المتحدة، ولم تسنح له الفرصة بعد ذلك أبداً لزيارة فرنسا أو لبنان أو «إيطاليا» التي طالما رغب في زيارتها.

وصل جبران في أواخر عام ١٩١٠ إلى بوسطن، حيث اقترح على ماري هاسكل الزواج والانتقال إلى نيويورك هرباً من الجو السائد في أوساط الجالية اللبنانية، وطلباً لمجال فكري وأدبي وفني أرحب، ولكن ماري رفضت عرضه بسبب فارق السن، فترك ذلك جرحاً في نفسه، فقرر السفر إلى نيويورك منفرداً. حزم حقائبه وغادر بوسطن حاملاً معه مخطوطة **الأجنحة المتكسرة** ونسخة من كتاب نيتشه **هكذا تكلّم زرادشت**. وسرعان ما أدرك بعد وصوله إلى نيويورك، أنها ليست مكاناً للراحة، فتميزت إقامته فيها بنشاط لافت للنظر: زار متحف «متروبوليتان» للفنون، وتعرّف إلى الجالية اللبنانية وبعض مشاهير نيويورك، وبدأ برسم لوحته «إيزيس». وفي هذه الأثناء، في شتاء عام ١٩١١ لحقت به «ماري» فزارا بعض المتاحف، وعادا معاً إلى بوسطن، حيث عرضت عليه أن تمنحه مبلغ خمسة آلاف دولار دفعة واحدة بدلاً من الإعانات المتقطعة الصغيرة التي كانت تمدّه بها بين الحين والآخر،

فقبِل ذلك وأوصى لها بكل لوحاته ورسوماته أو لـ «فرد هولاند داي» إن وافتها المنيّة قبل ذلك، وأوصى بمخطوطاته الأدبية لأخته ماريانا، وبكتبه في لبنان لمكتبة بشرّي.

في صيف عام ١٩١١ أنهى جبران قصته الطويلة **الأجنحة المتكسرة** ولوحته «إيزيس» وزيّن بالرسوم كتاباً لأمين الريحاني، وكتب مقالتين، ندّد في الأولى «العبودية» بخضوع حياة شعب لقوانين حياة شعب آخر، وتمرّد في الثانية «أبناء أمّي» على مواطنيه الذين لا يثورون في وجه المحتل، والتقى بالكاتب المسرحي الإيرلندي «وليم ييتس» مرّات عدّة، وفي أواخر العام نفسه عاد إلى نيويورك حيث نشر **الأجنحة المتكسرة** التي ارتسمت فيها بوضوح ملامح أسلوبه وفكره.

٣ ـ ما تبقّى من العمر (نيويورك)

انتقل جبران إلى نيويورك أواخر عام ١٩١١ ولم يغادرها حتى وفاته، وعرف في هذه الفترة من حياته نوعاً من الاستقرار مكّنه من الانصراف إلى أعماله الأدبية والفنية، فقام برسم العديد من البورتريهات لكبار المشاهير مثل رودان وسارة برنار وكارل غوستاف يونغ وتوماس أديسون. وفي هذه الفترة نفسها، في عام ١٩١٢، التقى بعدد كبير من المفكرين والأدباء، من بينهم الروائي الفرنسي «بيير لوتييه» والفيلسوف «هنري برغسون» والشاعر الأمريكي «ويتر بوينر»، واكتشفته ميّ زيادة، المهاجرة إلى مصر (التي استقطب صالونها الأدبي في القاهرة كبار الأدباء والمثقفين العرب أمثال طه حسين وعباس محمود العقاد ويعقوب صرّوف)؛ حدث ذلك حين قرأت في الصحف مقالته «يوم مولدي» فأسرها أسلوبه، وحين قرأت **الأجنحة المتكسرة** كتبت له تحاوره في موقفه من المرأة في هذا العمل، وهكذا بدأت بينهما مراسلات لم تنقطع سوى أعوام قليلة عقب الحرب العالمية الأولى، فتبادل الاثنان في رسائلهما الإطراء حيناً، والنقد حيناً آخر، وتحدثا عن الأدب، وروى لها جبران همومه اليومية وطفولته وأحلامه وأعماله، وعبّرت له ميّ

عن عواطفها وهواجسها، وأحسّ كلٌّ منهما أنه قريب من الآخر، وأن خيوطاً خفيّة تربط بين فكريهما وروحيهما.

كانت ميّ حساسة جداً وحالمة، تعلّقت بصورة مراسلها البعيد ورفضت كل الطامحين إلى الزواج منها، وتمنت في إحدى مقالاتها أن تكون بقرب ذلك الرجل الذي حال البعد دون التقائها به. استمرت المراسلات بين ميّ وجبران حتى وفاته، فكانت مجموعة من أخصب وأجمل ما عرفه أدب المراسلة في تاريخ الأدب العربي.

في عام ١٩١٣ ظهرت في نيويورك **مجلة الفنون** التي أسسها الشاعر المهجري الحمصي نسيب عريضة، فشارك جبران في تحريرها، إلى جانب صديقه ميخائيل نعيمة، ونشر فيها مقالات متنوعة جداً وقصائد نثرية ودراسات أدبية خصّ بها اثنين من كبار الصوفيين هما أبو حامد الغزالي وابن الفارض.

كان جبران في هذه الفترة من حياته ذا طبيعة أقرب إلى الحزن، محباً للانعزال والعمل، أنوفاً، بالغ الحساسية، لا يتسامح مع أي نقد، وثائراً لا يقبل الظلم، يدخّن كثيراً، يتناول القهوة المركّزة، ويأخذ حّماماً بارداً كي يبقى يقظان مستمراً في عمله، فأنهك هذا الأسلوب في الحياة جسمه وأضفى عليه ملامح الكبر، لكنه لم يقلل من نشاطه ويقظة عينيه اللتين تنمّان عن ذكائه النادر، وإشراق ابتسامته الموحي ببراءة الأطفال، ولم يصرفه عن التفكير في مشاريعه المستقبلية، ولا سيما الكتابة باللغة الإنكليزية التي رأى أنها يمكن أن تفتح له الكثير من الأبواب، وتتيح له ملامسة عقول ومشاعر الجمهور الأمريكي.

لقد كانت أعوام ١٩١٤ ـ ١٩١٦ فترة غنية باللقاءات في حياة جبران، الذي تردد على صالونات المجتمع الراقي التي كانت تديرها نساء نيويوركيات متنفذات، فتعرف فيها إلى الفنانة الشهيرة روز أونيل، وعمدة نيويورك، والشاعرة إيمي لويل، والرسام الرمزي ألبرت رايدر، والشاعر

الهندي الكبير رابندرانات طاغور، ودُعي مرات عدة إلى إلقاء محاضرات في الجمعية الأمريكية للشعر، وألقى فيها باللغة الإنكليزية مقتطفات من كتابه **المجنون** الذي كان بصدد تأليفه، كما شارك في هذه الأثناء في مجلة جديدة هي مجلة **الفنون السبعة** التي كانت تنشر لكتّاب مشهورين مثل جون دوس باسوس وبرتراند راسل، وقد نشر جبران فيها نصوصه الأولى المكتوبة باللغة الإنكليزية.

تفاعل جبران بقوّة مع أحداث الحرب العالمية الأولى، رغم بعده آلاف الكيلومترات عن ساحات المعارك، واعتراه القلق والاضطراب بسبب ما بلغه من أخبار لبنان حيث استولت السلطات العثمانية على كل موارد البلد وصادرت الماشية، فانتشرت المجاعة. وعلّق جمال باشا السفاح مشانق الوطنيين اللبنانيين والسوريين في الساحات العامة في دمشق وبيروت، فشعر جبران بالذنب لبعده عن «أولئك الذين يموتون بصمت». وسعياً منه إلى تقديم كل مساعدة ممكنة، شغل منصب أمين سر لجنة مساعدة المنكوبين في سورية وجبل لبنان، وأسهم بالتعاون مع الجالية السورية ـ اللبنانية في بوسطن ونيويورك في إرسال باخرة مساعدات غذائية إلى مواطنيه. وقد أضعف هذا النشاط اهتماماته الفنية والأدبية مؤقتاً. ولكنه، رغم ذلك، نشر في عام ١٩١٤ مجموعته **دمعة وابتسامة** التي ضمت مقالاته المنشورة سابقاً في جريدة **المهاجر**، وهي مقالات ذات نفحة إنسانية، عبّر فيها عن تأملاته في الحياة والمحبة والوضع في لبنان وسورية، وقد صاغها على شكل قصائد منثورة، فكان رائداً لذلك النوع من الصياغة في الأدب العربي.

لم يتوقف نشاط جبران في دعم قضايا وطنه الأول لبنان طيلة أعوام الحرب؛ ففي عام ١٩١٦ التقى من جديد صديقه ميخائيل نعيمة الذي كان ألّف فيه كتاباً بعنوان **جبران خليل جبران**، فاشترك معه في النضال من أجل تحرير وطنهما عبر لجنة من المتطوعين، حيث شغل جبران منصب المسؤول عن مراسلات اللجنة باللغة الإنكليزية، أما نعيمة فعمل مسؤولاً عن مراسلاتها باللغة العربية.

ومع اقتراب الحرب من نهايتها أكبّ جبران على الكتابة، فألّف مقاطع جديدة من كتابه **النبي**، وأنهى كتابه **المجنون** وهو أول كتاب له باللغة الإنكليزية. وقد ظهر هذا الكتاب عام ١٩١٨ مزيّناً بثلاث لوحات للمؤلف، فشكّل منعطفاً في أعمال الكاتب، ليس فقط بلغته وأسلوبه الذي تميز بالبساطة واللهجة الساخرة والمرارة، وإنما بما فيه من تأمل وسمو روحي أيضاً.

ونشر جبران في عام ١٩١٩ كتابه **المواكب** وهو قصيدة طويلة مؤلفة من مئتين وثلاثة أبيات، كتبها على شكل حوار فلسفي بين صوتين، يسخر أحدهما من القيم المصطنعة للحضارة، وينشد الآخر، الأكثر تفاؤلاً، أنشودة للطبيعة ووحدة الوجود. وقد تميز الكتاب بتعابيره البسيطة والصافية والتلقائية.

وفي أواخر عام ١٩١٩ نفسه، نشر جبران ألبوم صور ضمّ عشرين لوحة من رسمه، وقدّمت له الناقدة الفنية أليس رفائيل إكستين، فقالت: «يقف جبران في أعماله الفنية عند الحدود بين الشرق والغرب والرمزية والمثالية». وشهد ربيع عام ١٩٢٠ في بيت جبران في نيويورك ميلاد «الرابطة القلمية» التي انتُخب جبران رئيساً لها، وانتُخب ميخائيل نعيمة أميناً للسرّ. وقد ضمّت الرابطة، إضافة إلى جبران ونعيمة، عدداً من الأدباء المهجريين السوريين واللبنانيين، منهم إيليا أبو ماضي وعبد المسيح حداد صاحب مجلة **السايح** التي راح أعضاء الرابطة وغيرهم من الكتّاب العرب ينشرون فيها أعمالهم الداعية إلى تخليص الأدب العربي من حالة الجمود والتقليد التي غرق فيها، ورفده بدم جديد، وتحريره من القوالب القديمة، وإرساء حوار حقيقي مع الغرب، وتَمَثّلِ الحضارة الأوروبية بدون الخضوع لها. وقد بقي أعضاء الرابطة يجتمعون دورياً تقريباً حتى وفاة جبران.

وفي خريف عام ١٩٢٠ نفسه أصدرت «دار الهلال» المصرية كتاب جبران **العواصف** الذي حمل فيه على عيوب الشرقيين وتعلّقهم بالماضي والتقاليد البالية، وأعلن رفضه حالة خنوع المضطهدين وضعفهم، داعياً

إياهم إلى الطموح والسمو. وبعد أسابيع من صدور **العواصف** نشر جبران كتابه الثاني باللغة الإنكليزية **السابق** مزّيناً بخمس لوحات من رسومه. وقد جاء بصيغة أمثال وحكم صغيرة مفعمة بالتصوف، وكان تهيئة لكتابه **النبي**.

انصرف جبران في الأعوام الثلاثة التالية إلى إنجاز كتابه الأهم **النبي**، وساعدته ماري هاسكل في تدقيقه لغوياً. أرهقه العمل، وساءت صحته ولم يداوها الفرار إلى الطبيعة بصحبة الأصدقاء، فآثر البقاء في بوسطن بقرب شقيقته ماريانا، ولم يعد يطمح إلا إلى إنهاء مخطوطته والعودة إلى مسقط رأسه. غير أن العودة كانت بعيدة المنال بسبب ملاحقة دائني والده القضائية له ولشقيقته بغية استرداد ديونهم، أما الكتاب فأُنجز ودُفع إلى النشر في خريف عام ١٩٢٣.

لقد حمل جبران بذور هذا الكتاب في كيانه منذ الطفولة، ففي رسالة له إلى مي زيادة عام ١٩١٨ يقول: «هذا الكتاب فكّرت بكتابته منذ ألف عام». وفي عام ١٩٣١، آخر أعوام حياته، يقول جبران: «شغل هذا الكتاب الصغير كل حياتي. كنت أريد أن أتأكد بشكل مطلق من أن كل كلمة كانت حقاً أفضل ما أستطيع تقديمه»، ولم تذهب جهوده عبثاً، فاليوم، وبعد ما يزيد على ثمانين عاماً، لا يزال ملايين الناس، يقرأون هذا الكتاب في كل أنحاء العالم وبكل لغات العالم الحية.

إن كتاب **النبي** كتاب متميز جداً من حيث أسلوبه وبنيته ونغمية جمله، وهو غنيّ بالصور والتلميحات والأمثال. إنه كتاب في التفاؤل والأمل، يقدم لنا فيه جبران رسالة روحية تدعونا إلى تفتح الذات، و«إلى ظمأ أعمق للحياة» بطريقة شاعرية وأسلوب سلس.

٤ ــ عودة المهاجر

توفي جبران بمرض السرطان في العاشر من نيسان/ أبريل عام ١٩٣١ في أحد مستشفيات نيويورك، وهو في الثامنة والأربعين من عمره، ودفن في مقبرة «مونت بينديكت» إلى جوار أمه وشقيقته سلطانة وأخيه غير الشقيق

بطرس. وأقامت الجاليات اللبنانية والعربية مآتم له في نيويورك وبيونس آيرس وسان باولو، وفي صيف العام نفسه نقل رفاته، بعد موافقة شقيقته ماريانا، إلى مسقط رأسه في لبنان، حيث استقبلته جموع غفيرة من الناس. وبعد احتفال قصير حضره رئيس الدولة نقل إلى بشرّي، ثم ووري فيها الثرى على وقع أجراس الكنائس، ونُقشت على قبره عبارة تقول: «كلمة أريد رؤيتها على قبري. أنا حيّ مثلكم، وأنا الآن إلى جانبكم. أغمضوا عيونكم، انظروا حولكم، وستروني. . .».

كرّم لبنانيون ذكرى جبران فأقاموا له متحفاً في دير مارسركيس حيث قبره، ودشّنوا في عام ٢٠٠٠ ساحة باسمه في وسط بيروت، وثمة مركز ثقافي في البرازيل يحمل اسمه شيّدته الجالية اللبنانية هناك. ولجبران نصبان تذكاريان، أحدهما في بوسطن، والآخر في واشنطن، ويضم عدد من أشهر المتاحف الأمريكية كثيراً من اللوحات التي خطّتها ريشته.

ثانياً: نظرة في فكر جبران وفنّه

من المعروف أن هجرة أبناء سورية ولبنان إلى الولايات المتحدة الأمريكية والبرازيل بدأت في ثمانينيات القرن الماضي، وباتت جماعية في مطلع القرن العشرين، وأنها شملت المهاجرين الأثرياء الباحثين عن تحقيق الأرباح، والفقراء الحالمين بجني الثروة والعودة إلى الوطن، وأن عدد المهاجرين بلغ ما يعادل ربع سكان سورية (المقصود هنا سورية الطبيعية) عشية الحرب العالمية الأولى.

لقد كان بين المهاجرين عدد غير قليل من المثقفين الذين جرّبوا قدراتهم في الأدب والصحافة في أوطانهم قبل الهجرة (غالبية هؤلاء من المسيحيين الذين تلقوا دراستهم في المدارس التبشيرية الواسعة الانتشار آنذاك في سورية) وقد راح الكثيرون منهم يصدرون الصحف والمجلات في أمريكا، حتى بلغ عدد هذه الصحف والمجلات عام ١٩١٠ قرابة خمسين دورية تصدر باللغة العربية في الولايات المتحدة الأمريكية.

١ ـ المدرسة المهجرية في الأدب العربي

يعود الفضل، في تأسيس المدرسة المهجرية في الأدب العربي، إلى الجيل الثاني من المثقفين المهاجرين، إلى أولئك الذين وصلوا إلى الأرض الأمريكية أطفالاً وتكوّنت نظرتهم إلى العالم وأذواقهم الأدبية تحت تأثير حضارات ثلاث: الأمريكية، والأوروبية، والعربية، علماً بأن طريقهم إلى حضارتهم القومية العربية لم تكن مباشرة دائماً، بل كانت صعبة وملتوية في كثير من الأحيان، ومع ذلك فإن هؤلاء كانوا مرتبطين روحياً أشد الارتباط بوطنهم الأم، في حين ظلت أمريكا غريبة عنهم، لأنهم لم يستطيعوا تقبل العالم الغربي في سعيه المحموم إلى الكسب المادي، بل كانوا في قلق دائم من أن يسحقهم التنافس المسعور على الخيرات المادية.

لم يجد المهاجرون العرب في الغرب مملكة العدالة والمساواة والحرية والاستقلال، بل سرعان ما اكتشفوا أن هذه المفاهيم بعيدة جداً من التحقق الفعلي في حياتهم، وأن العواطف الإنسانية في المجتمعات الغربية أسيرة عتمة القوانين الاجتماعية، وأنها مكبّلة بسلاسل التقاليد ومنسية في زاوية مهملة من زوايا الحضارة الحديثة. وهذا ما جعل جبران، مثلاً، يشبّه قلب الإنسان بطائر يموت جوعاً وعطشاً مرمياً في روضة مزهرة على شاطئ النهر[١].

كذلك افتقد أدباؤنا المهجريون، ومن بينهم جبران، ما يهدّئ قلقهم ويخفّف من وطأة غربتهم في الشرق الذي هاجروا منه، فقد كانوا يحسون إحساساً حاداً بتخلّفه وفساد الحياة فيه والتناقضات المستعصية التي تمزقه.

لقد واجه الأدباء المهجريون هذا العالم المعادي لروح الإنسان، بعالم أرواحهم الحية الغنية بالعواطف والأفكار، واستدعى مزاجهم العاطفي لوناً أدبياً جديداً إلى الحياة تجلّى في كتابات جبران على شكل مقطعات

---

(١) انظر: **المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران العربية** (بيروت: دار صادر، ١٩٧٠)، ص ٢٥٩.

غنائية تتسم صورها ولغتها بشعرية أخّاذة، عبّر فيها جبران عن رفضه للعالم المادي القاسي المفتقر إلى النبالة وسمو الروح. وقد قاد هذا الرفض جبران، كغيره من الأدباء المهجريين، إلى اللجوء إلى الطبيعة التي رأى فيها خلاصاً من المآسي والخيبات. إن الهرب إلى الطبيعة كمحاولة لتجسيد عالم المثل الروحية تجسيداً حقيقياً سمة هامة من سمات الأدب الرومانتيكي، ومصدر من أهم مصادر الصور الفنية عند الرومانتيكيين. ولقد أنشأ جبران صوراً للطبيعة مذهلة وساطعة وحيّة لم يعرف الأدب العربي مثيلاً لها من قبل، إذ تبدو الطبيعة في أعماله متناغمة منسجمة حيناً، وعاصفة مضطربة حيناً آخر، ومتناقضة موّارة بالصراع حيناً ثالثاً، وهي في جميع حالاتها انعكاس لروح أديبنا المبدع الذي تنامى فيه حبه للطبيعة فأصبح نوعاً من الشعور الديني مشكلاً في أدبه، لا سيما في أواخر حياته الإبداعية، محاولة لفهم العالم فهماً دينياً بعيداً عن المعتقدات الرسمية السائدة.

٢ ـ مؤلّفات جبران المبكرة

كان جبران فناناً قبل كل شيء، وهو لم يختبر موهبته الفنية في الأدب وحده، بل مارس الرسم بالفحم والرسم الزيتي أيضاً، وكانت الموسيقا فناً أثيراً لديه، فقد بدأ حياته الأدبية بمقالة متميزة عن الموسيقا، ربط فيها، كأي رومانتيكي أصيل، بين الموسيقا والشعر والرسم. فرأى أن: «. . . الموسيقا كالشعر والتصوير، تمثل حالات الإنسان المختلفة، وترسم أشباح أطوار القلب وتوضح أخيلة ميول النفس، وتصوغ ما يجول في الخاطر، وتصف أجمل مشتهيات الجسد»[٢]، وهو لم يكتف بذلك بل جعل سلطانها شاملاً لكل جوانب النفس الإنسانية «فالموسيقا هي لغة النفوس»[٣]، وهي «ابنة النفس والمحبة» و«مرارة الغرام وحلاوته» و«دخيلة القلب البشري»

---

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٣.

و«رائحة متصاعدة من طاقة زهور المشاعر المضمومة»[٤].

إن مؤلفات جبران المبكرة، قصصه القصيرة ومقطعاته النثرية، وقصته الطويلة **الأجنحة المتكسرة**، مشحونة بالعاطفة ومشغولة بالبحث عن انسجام العالم وتناغمه اللذين يجب أن ينبعثا من الجمال والحب المسفوحين في الطبيعة. إن هذه المؤلفات تغصّ بالحزن لمصير البشر «المذلّين المهانين»، ولكن ترن، في الوقت نفسه، في قصصه القصيرة وفي **الأجنحة المتكسرة** نغمات الاحتجاج ضد الرياء في الدين وسلطة رجال الكنيسة وضد الوضع العبودي للمرأة الشرقية التي لا تملك حق اختيار مصيرها. إن أبطال جبران لا يتألمون فقط، بل ينتفضون ضد الظلم والتقاليد البالية ويواصلون نضالهم حتى النهاية، فيحققون سعادتهم أو يموتون في غمرة الصراع. ومع الزمن يتنامى التمرد في أعماق جبران فتحل **العواصف** محل **دمعة وابتسامة**، ويتسع نطاق الاحتجاج فلا يقتصر على بعض عيوب المجتمع، بل يشمل كل مظاهر العبودية السائدة في كل زمان ومكان، من بابل القديمة إلى نيويورك المعاصرة. إنه يكره فلسفة البرجوازي المتعيش، ويرى العالم المحيط به «غابة الأهوال»[٥] التي «تسكنها حيوانات داجنة المظاهر، معطرة الأذناب، مصقولة القرون، لا تقضي شرائعها ببقاء الأنسب بل بدوام الأروغ والأحيل، ولا تؤول تقاليدها إلى الأفضل والأقوى بل إلى الأخبث والأكذب. أما ملوكها فهم مخاليق عجيبة، لهم مناقر النسور وبراثن الضبع وألسنة العقارب ونقيق الضفادع»[٦]، ويرى نفسه، وهو الشاعر الذي حمل إلى الناس ثمرات روحه، غريباً وحيداً منبوذاً.

٣ ـ من النيتشوية إلى النظرة الإنسانية الشاملة

يكتسب تمرد جبران طابعاً نيتشوياً، فيقف الشاعر ـ الإنسان المتفوق

(٤) المصدر نفسه، ص ٤٣.
(٥) انظر: المصدر نفسه، ص ٣٧٦.
(٦) انظر المصدر نفسه، ص ٣٧٦.

المدرك لأسرار الوجود والعدم ـ في مواجهة الناس الذين يبدون أحياء «وهم أموات منذ الولادة»[٧]، يحتقرهم ويسخر منهم ويظل متعالياً عظيماً في وحدته. إن ملاحقة أجيال الناس «عبيد الحياة» تتعبه، ويمل «النظر إلى مواكب الشعوب والأمم المستعبدة»[٨] فيجلس «وحيداً في وادي الأشباح حيث تختبئ خيالات الأزمنة الغابرة وتربض أرواح الأزمنة الآتية»[٩]، وهناك يتعرف على الحرية وأبنائها، وهُم في تصوره «واحد مات مصلوباً» (المسيح) «وواحد مات مجنوناً» (نيتشه) «وواحد لم يولد بعد»[١٠]. نحن لا نعتقد أن جبران يعني بذلك «الذي لم يولد بعد» نفسه، ولكننا نكاد نجزم بأنه رأى نفسه بشيراً لميلاده، إذ من غير المصادف أن يطلق اسم **السابق** على مجموعته التي نشرها عام ١٩٢٠ ورأى فيها أن من واجبه ألّا يقصر دعوته على العرب، وأن عليه أن يبشر العالم كله بميلاد «ابن الحرية» القادم.

هكذا انتقل جبران إلى الكتابة باللغة الإنكليزية، فنشر بها عدداً من المجموعات من الشعر المنثور والخواطر لفتت نظر أبناء وطنه الثاني (أمريكا)، وضمنت له مكانة مرموقة في تاريخ الأدب الأمريكي، كما حظيت باهتمام بالغ في وطنه الأم.

لقد كانت علاقة جبران بوطنه البعيد متناقضة، غير أنها ظلت، في تناقضها، تحتفظ بجوهرها الحقيقي ألا وهو حب لبنان حباً يصل إلى حد العبادة. إنه يعبّر تارة عن كرهه العميق للتقاليد العفنة في وطنه ولمواطنيه الذين ألفوا العبودية فيتصورهم «. . . مستنقعات خبيثة تدب الحشرات في أعماقها وتتلوى الأفاعي على جنباتها»[١١]، ويعبّر تارة أخرى عن حزنه العميق لمصيرهم المؤلم. إن مقطوعته النثرية «مات أهلي» التي كتبها إبّان محنة لبنان

---

(٧) المصدر نفسه، ص ٣٦٨.
(٨) المصدر نفسه، ص ٣٧٤.
(٩) المصدر نفسه، ص ٣٧٤.
(١٠) المصدر نفسه، ص ٣٧٤.
(١١) المصدر نفسه، ص ٣٩٢.

القاسية في أعوام الحرب العالمية الأولى حين تعرضت المقاطعات العربية في الإمبراطورية العثمانية للنهب وعانت المجاعة الرهيبة، منحوتة بأرق المشاعر وأصدقها. إنها مقطوعة تخلو من رنة الاحتقار والإدانة وتنضح بإحساس الشاعر بمسؤوليته أمام شعبه وتعاطفه معه وخجله من كونه بعيداً عن وطنه ساعة المحنة وعاجزاً عن تقديم يد العون والمساعدة له؛ يقول جبران:

«مات أهلي على الصليب.

ماتوا وأكفّهم ممدودة نحو الشرق والغرب، وعيونهم محدّقة إلى سواد الفضاء.

ماتوا صامتين لأن آذان البشرية قد أُغلِقت دون صراخهم.

ماتوا لأنهم لم يحبّوا أعداءهم كالجبناء، ولم يكرهوا محبيهم كالجاحدين.

ماتوا لأنهم لم يكونوا مجرمين.

ماتوا لأنهم لم يظلموا الظالمين.

ماتوا لأنهم كانوا مسالمين.

ماتوا جوعاً في الأرض التي تدرّ لبناً وعسلاً.

ماتوا لأن الثعبان الجهنمي قد التهم كل ما في حقولهم من المواشي وما في أهرائهم من الأقوات.

ماتوا لأن الأفاعي أبناء الأفاعي قد نفثوا سمومهم في الفضاء الذي كانت تملأه أنفاس الأَرْز وعطور الورد والياسمين»[١٢].

غير أن حب جبران العميق لوطنه الأم لم يصرفه عن النظرة الإنسانية الشاملة، وقد جاء أشهر كتبه باللغة الإنكليزية **النبي** (١٩٢٣) ثمرة تأملاته وأفكاره التي شملت مصائر الإنسانية كلها. إن جبران في هذا الكتاب شاعر وواعظ في وقت واحد، فبطله «المصطفى» يخرج إلى الناس ليعلّمهم ديناً

---

(١٢) المصدر نفسه، ص ٤٣٠.

يخالف ما ألفه المجتمع، ويقرّبهم من أسرار الوجود الخفية. ومواعظ «المصطفى» تشمل جميع جوانب حياة البشر المادية والروحية والأخلاقية، وترتسم في هذه المواعظ الصورة النهائية لمُثُل جبران الأعلى، إنها الحياة الممتلئة عملاً وفكراً والمتحررة تماماً من قيود التقاليد والقوانين. ولكن التحرر الذي يتحدث عنه جبران في كتابه ليس تحرر «الإنسان المتفوق» الذي يبيح لنفسه كل شيء، بل هو تحرر الروح والجسد من أجل أن يعمل العقل والعواطف بفعالية وانسجام، ومن أجل أن يجد الإنسان في الواقع ما فطر عليه من الخير.

عرف جبران، في بحثه عن انسجام العالم، التمرد على المجتمع، والتعاطف مع الفقراء، واحتقارهم، وغنى نشيد الإنسان العظيم الذي يضم بين جوانحه روحاً متوهجة أبداً، ونشيد الحب الذي يمكّن الناس من اكتشاف أسرار قلوبهم ليصبحوا من خلال ذلك جزءاً من قلب الحياة نفسها. وهو يرى الآن، في كتابه **النبي**، أن الجمال ليس في الطبيعة فقط، بل هو في الإنسان الملتحم بها أيضاً، ويرى أن الجمال هو الحياة بعينها سافرة عن وجهها الطاهر النقي.

«ولكن أنتم الحياة وأنتم الحجاب.

والجمال هو الأبدية تنظر إلى ذاتها في مرآة.

ولكن أنتم الأبدية وأنتم المرآة»(١٣).

لقد تبوّأ «جبران خليل جبران» عن جدارة مركز الصدارة في أدبنا العربي المهاجر، وذاع أدبه وفكره في طول الوطن العربي وعرضه. وعلى الرغم من مرور ثمانين عاماً على وفاته ما زال اسمه حيّاً بيننا، وما زال أدبه المكتوب بدم القلب يبعث أنبل المشاعر وأصدقها في قلوب أجيالنا الفتية.

---

(١٣) **المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران المعرّبة عن الإنكليزية** (بيروت: دار صادر؛ دار بيروت، ١٩٦٤)، ص ١٣٢.

٤ ـ تنامي الاهتمام بإبداعات جبران

إن إصدار كتب جبران باللغتين العربية والإنكليزية يتنامى بمرور الزمن، كأمثلة على ذلك نذكر تعريب أعماله المكتوبة باللغة الإنكليزية في السلسلة الأدبية المعروفة من روائع «جبران خليل جبران»، التي صدرت في القاهرة عام ١٩٥٠ وقام بتعريبها والتقديم لها ثروت عكاشة، وضمّت أعماله «النبي» و«حديقة النبي» و«رمل وزبد» و«أرباب الأرض»، ونذكر كذلك ترجمة الشاعر المرموق «يوسف الخال» لكتاب جبران «النبي» التي صدرت في بيروت عام ١٩٦٨، وكذلك صدور المجموعة الكاملة لمؤلفات «جبران خليل جبران» عام ١٩٧٠ عن دار صادر في بيروت، وقد قام بالتقديم لها وأشرف على تنسيقها ميخائيل نعيمة. ويتنامى كذلك عدد الدراسات التي تلقي الضوء على جوانب مختلفة من حياة جبران وإبداعه[١٤]. وكل ذلك يؤكد ما ذهبنا إليه أعلاه، ويجعلنا نقول بثقة إن «جبران خليل جبران» واحد من أكبر الأدباء العرب في العصر الحديث، وأكثرهم أصالة. والسر في رسوخ الاهتمام بجبران يكمن في إبداعات هذا الأديب نفسها، فهي تحمل طابع موهبة فنية فذة وتنضح إخلاصاً وصدقاً ورغبة وشجاعة في معالجة المسائل الكبرى التي شغلت وما زالت تشغل بال الإنسانية حتى يومنا هذا.

٥ ـ تصنيفات الدارسين لإبداع جبران الأدبي

إن إبداعات جبران ظاهرة متميزة تشغل مكانة خاصة في تاريخ الأدب العربي الحديث، إنها إبداعات تتسم بتعدد اهتماماتها والتآلف العضوي فيها بين البدايات الغربية والبدايات العربية الشرقية، وتنوع محتوياتها الفكرية

---

(١٤) نذكر منها على سبيل المثال: يمنى العيد، «أدب جبران خليل جبران بين الوعي والواقع،» **الطريق** (بيروت)، العدد ٦ (١٩٧٠)، ص ١٠١ ـ ١١٢؛ نديم ناعمة، «جبران في عالمه الفكري،» **الآداب**، العدد ١٠ (١٩٧٢)، ص ١٨ ـ ٢١، والعدد ١١ (١٩٧٢)، ص ٣٤ ـ ٣٧، ومحمد علي الخطيب، «صورة واحدة لثورة جبران،» **الطريق**، العدد ٦ (١٩٧٢)، ص ١٢٢ ـ ١٢٨.

وصيغها وألوانها، وازدواجية اللغة عند كاتبها. ودراسة هذه السمات الأساسية في أدب جبران تمكّننا من تحديد الخط الذي يحكم تطور المراحل المختلفة من حياة مبدعه. غير أن هذه المسألة، على أهميتها، لم تنل من الدراسة حقها الكافي، لا في أعمال الباحثين العرب ولا في أعمال المستشرقين. فالمستشرقون اكتفوا في مقالاتهم وبحوثهم عن جبران بتقديم تصوّر عام عن إبداعه[١٥]. أما الباحثون العرب فقد حاولوا تقسيم مسيرة جبران الأدبية إلى مراحل، فالدكتورة «يمنى العيد» ركزت اهتمامها على موقف جبران من الواقع، فقسمت بالاستناد إلى ذلك أدبه إلى ثلاث مراحل:

١ ـ إضاءة حقائق الواقع والاحتجاج عليها.

٢ ـ التخلّي عن الاحتجاج.

٣ ـ البحث عن ملجأ في اليوتوبيا.

واعتمد الباحث المصري «عدنان السكيك» في بحثه **النزعة الإنسانية عند جبران**، المنشور في القاهرة عام ١٩٧٠، حياة الأديب أساساً في تصنيف أدبه، وبالاستناد إلى ذلك قسم إبداع جبران إلى المراحل التالية:

١ ـ مرحلة أولى (١٩٠٥ ـ ١٩١٤) وتضم أعمال جبران «الموسيقا» ١٩٠٥ و«عرائس المروج» ١٩٠٦ و«الأرواح المتمردة» ١٩٠٨ و«الأجنحة المتكسرة» ١٩١٢ و«دمعة وابتسامة» ١٩١٤، وكلها أعمال كتبت بالعربية.

٢ ـ مرحلة وسطى (١٩١٤ ـ ١٩٢٠) وتضم: «المجنون» ١٩١٨

---

(١٥) نذكر على سبيل المثال كتاب بربارة يونغ: Barbara Young, *This Man from Lebanon: A Study of Kahlil Gibran* (New York: Knopf, 1964).

الذي يحمل طابع المذكرات إذ تضمن عدداً من الوقائع الطريفة في حياة جبران. ولكن التقويم المغرق في الذاتية وافتقار الكتاب إلى الدقة العلمية يجعل من الصعب على الباحث اعتماده مرجعاً.

كذلك نذكر ما كتبه «كراتشكوفسكي» في الجزء الثالث من مؤلفاته المختارة المنشورة في لينينغراد وموسكو عام ١٩٥٦، ص ٣٤٧ـ ٣٥١ عن جبران، وما جاء في مقالته «الأدب العربي في أمريكا» المنشورة في **مجلة جامعة لينينغراد**، العدد ١ (١٩٢٨)، ص ١ ـ ٢٧.

و«المواكب» ١٩١٩ و«السابق» و«العواصف» ١٩٢٠ وهي أعمال، ماعدا «المواكب» مكتوبة بالعربية والإنكليزية.

٣ ـ مرحلة ختامية (١٩٢٠ ـ ١٩٣١) وتضم: «النبي» ١٩٢٣ و«رمل وزبد» ١٩٢٦ و«يسوع ابن الإنسان» ١٩٢٨ و«أرباب الأرض» و«حديقة النبي» (طبعتا عام ١٩٣٢ بعد موت جبران) وهي أعمال مكتوبة بالإنكليزية.

وثمة أخيراً التصنيف الذي وضعه ميخائيل نعيمة في مقدمته للمجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران باللغة العربية، حيث يصنّف مؤلفات جبران على أساس اللغة التي كتبت بها، فيجعل إبداعه في مرحلتين: **الأولى** منهما هي مرحلة الكتابة العربية (من عام ١٩٠٥ إلى عام ١٩١٨)، **والثانية** هي مرحلة الكتابة بالإنكليزية (من عام ١٩١٨ إلى عام ١٩٣١) من دون أن يحاول تفسير أسباب انتقال جبران من مرحلة إبداعية إلى مرحلة إبداعية أخرى.

ليس ثمة ما يدعو إلى معارضة المبدأ الذي بنى عليه ميخائيل نعيمة تصنيفه، ولكن لا بد من أن نضع في أساسه التطورات والتغيرات التي طرأت على ما حدده جبران لنفسه من مهمات إبداعية في مراحل حياته المختلفة. إن اتباع مبدأ كهذا يمكننا من تفسير أسباب انتقال جبران من لغة إلى أخرى، ويسمح لنا بإدراك العلاقة بين المرحلتين اللتين أشار إليهما نعيمة، وبالاستناد إلى المبدأ المذكور يمكن تقسيم إبداع جبران إلى مرحلتين:

١ ـ مرحلة الكتابة باللغة العربية (١٩٠٥ ـ ١٩١٩) وتضم: «الموسيقا» (١٩٠٥) و«عرائس المروج» (١٩٠٦) و«الأرواح المتمردة» (١٩٠٨) و«الأجنحة المتكسرة» (١٩١٢) و«دمعة وابتسامة» المكتوبة بين عامي ١٩٠٣ و١٩٠٨ والمنشورة في عام ١٩١٤ و«العواصف» المكتوبة بين عامي ١٩١٤ و١٩١٨ والمنشورة في عام ١٩٢٠ و«المواكب» ١٩١٩.

٢ ـ مرحلة الكتابة باللغة الإنكليزية (١٩١٩ ـ ١٩٣١) وتضم:

«المجنون» (١٩١٨) و«السابق» (١٩٢٠) و«النبي» (١٩٢٣) و«رمل وزبد» (١٩٢٦) و«يسوع ابن الإنسان» (١٩٢٨) و«آلهة الأرض» و«حدائق النبي» المنشورتين عام ١٩٣٢ بعد موت جبران.

ثالثاً: الموضوعات الأساسية في كتابات جبران

١ ـ باللغة العربية

يبيّن التصنيف السابق لأعمال جبران أن مرحلة الكتابة باللغة العربية تشغل حيزاً يعادل نصف حياته الإبداعية، ويزيد قليلاً. ومن الخطأ أن نفترض أن كل ما أبدعه في هذه المرحلة من طبيعة واحدة، لذا فإننا نقترح من أجل تسهيل عمل دارسي إبداع جبران تقسيم مرحلة الكتابة باللغة العربية إلى فترتين: تضمّ **الأولى** منهما أعماله المبكرة المكتوبة بين عامي ١٩٠٥ و١٩١٤، وفي معظمها يستقي جبران الموضوعات والمواقف من تجاربه الشخصية، ولعل هذا ما يجعل ميخائيل نعيمة يقوّم أحد الأعمال الهامة فيها بقوله: «وأنت إذ تطالع «دمعة وابتسامة» تكاد تطالع فيه تاريخ قلب جبران وفكره وتاريخ حياته حتى عام ١٩٠٨»[١٦]. إن جبران في هذه الفترة لا يمارس التفكير المجرد في معنى الوجود الإنساني بل يركز اهتمامه على إنسان محدد يصور مشاعره وأفكاره، والمؤلفات التي كتبها فيه تتسم بالعاطفية الشديدة والحماس الرومانتيكي والاحتجاج العنيف ضد الظلم الاجتماعي والاضطهاد الديني والتقاليد البالية. لقد تطلبت مناقشة هذه القضايا المثيرة الملتصقة التصاقاً شديداً بحياة المجتمع العربي في مطلع القرن العشرين، من الكاتب، بسالة وطنية عظيمة وحسّاً إنسانياً سامياً، مكّنا جبران من الصمود في وجه خصومه الذين اتهموه بخرق القواعد الأخلاقية وبالفوضوية والمروق من الدين.

إن الموضوعة الأساسية في أعمال جبران المبكرة وطبيعتها المتمردة

---

(١٦) **المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران العربية**، ص ١٩.

دفعتا جبران إلى البحث عن صيغ أدبية جديدة غير تقليدية وإلى وسائل تصوير لغوية غير مألوفة في الأدب العربي. ومما لاشك فيه أن اطلاعه على الآداب الغربية، ولا سيما على إبداعات ممثلي الاتجاه الرومانتيكي فيها، لعب دوراً في ميله إلى كتابة الشعر المنثور والمقطعات. ونحن لا نعتقد أننا نجانب الصواب إذا قلنا إن العوامل التي أشرنا إليها أعلاه هي السبب الحاسم في رفض جبران لقوانين الأدب التقليدي والتفاته إلى موضوعات وصور فنية تتسم بالشعرية الرومانتيكية الرافضة لكل معطى موجود وجوداً حقيقياً في العالم المادي والعالم الروحي.

ونعتقد أننا لا نجانب الصواب أيضاً، إذا ربطنا بأعمال جبران المبكرة ظهور الرومانتيكية تياراً جديداً في الأدب العربي الحديث. لقد تجلت الرومانتيكية بصورتها المكتملة في مجموعة قصص جبران **الأرواح المتمردة**، وفي قصته الطويلة **الأجنحة المتكسرة**، وفي أشعاره المنشورة في مجموعته **دمعة وابتسامة** حيث يعالج جبران بروح الرومانتيكية موضوع البحث عن سبل خلاص الناس من المصائب والآلام وعذابات الاضطهاد.

أما الفترة **الثانية**، فتضم الأعمال التي كتبها جبران بالعربية بين عامي ١٩١٤ و١٩١٩، وهي أعمال احتفظت إلى حد كبير بالطابع الرومانتيكي، ولكنها تصور الحياة من موقع جديد يتسم بفعالية أكبر وعمق أكبر في فهمها وتفسيرها، ويبدو الكاتب في هذه الأعمال أكثر تقديراً للقوة والحزم، على الرغم من احتفاظه بالروح الحالمة المفرطة في الغنائية. وتبقى الأشعار المنثورة هي اللون الأثير لدى جبران، غير أن طريقته في تصوير الموضوعات القديمة تتبدل، فيحل محل الأبطال العاطفيين بطل جديد وحيد وقوي يخوض الصراع ضد المصير ويسيطر عليه. أما السبب في هذا التبدل فهو وقوع جبران في هذه الفترة تحت تأثير «فريدريك نيتشه» الذي عدّ كتابه **هكذا تكلم زرادشت** من أجمل ما أبدعه العقل البشري.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن ما أبدعه جبران في مرحلة الكتابة باللغة العربية لا يمكّننا من تتبع عملية استعداده للانتقال إلى الكتابة

بالإنكليزية فحسب، بل يمكّننا أيضاً من تتبع عملية نشوء موضوعات كتبه في المرحلة الجديدة وبدايات تطورها، ونحن نعني بذلك موضوع **النبي** وطموح أديبنا ليكون من خلال موهبته الإبداعية واعظاً روحياً.

إن موضوع «الشاعر» ورسالته السامية في الحياة واحد من أهم الموضوعات عند الرومانتيكيين الذين عدّوا الشاعر قديساً ونبياً، وأكدوا في كتاباتهم أن الشاعر الحقيقي بقي قديساً، كما أن القديس الحقيقي بقي شاعراً. وقد ظهر موضوع الشاعر «النبي» الملك الذي بعثته الآلهة ليعلم الناس «الإلهيات» لأول مرة عند جبران في قصيدته النثرية «الشاعر» في مجموعته **دمعة وابتسامة** حيث يصوّره بطلاً وحيداً لا يشعر الناس بالحاجة إلى معرفته وحكمته ولا يخلصه من عذابه وآلامه إلا الموت «تعالي أيتها المنيّة الجميلة فقد اشتاقتك نفسي. . اقتربي وحلّي قيود المادة فقد تعبت من جرّها. . تعالي إليّ أيتها المنيّة العذبة وخذيني فأولاد بجدتي لا يحتاجون إليَّ»[١٧]، ثم تحولت صورة هذا البطل تحت التأثير الشديد لنيتشه. ففي قصة جبران «يوسف فخري» من مجموعته **العواصف** يختار الشاعر، الإنسان القوي المتعالي الوحدة بإرادته عاداً إياها الوسيلة الوحيدة التي توقظ في الناس العقل والروح.

٢ ـ باللغة الأجنبية

يظهر في عام ١٩١٨ أول كتب جبران المكتوبة باللغة الإنكليزية **المجنون**، وفيه يواصل الكاتب تطوير موضوع وحدانية الشاعر الذي يسميه فيها «مجنوناً» حصل على حريته في وحدته. هكذا وصل جبران بالتدريج إلى موضوع كتابه الأساسي **النبي** ١٩٢٣ الذي طرح فيه آراءه وأفكاره حول قضايا الإنسان الخالدة.

يُعدّ عام ١٩٢٠ عام انعطاف أساسي في إبداع جبران خليل جبران، ففيه ينتقل نهائياً إلى الكتابة باللغة الإنكليزية. إن الانتقال من اللغة العربية إلى

---

(١٧) المصدر نفسه، ص ٢٥٢.

اللغة الإنكليزية كان عند جبران نتيجة استعداد نفسي وإبداعي للقيام بدور النبي المعلم الساعي إلى تعليم القارئ الغربي روحانية الشرق بعد إزالة الحاجز اللغوي بينه وبين ذلك القارئ، وكان في الوقت نفسه، مرحلة جديدة في تطور الوعي الإبداعي عنده، وفي إدراكه لعالمية رسالته الفكرية وشمولها. ولعله من المناسب هنا أن نشير إلى ظاهرة طريفة من ظواهر التناغم بين ممثلي الرومانتيكية في الغرب ورومانتيكية أديبنا الفذ، فمن المعروف أن الشرق شغل مكانة خاصة في إبداع الشاعر الأمريكي «إيميرسون»، فكان، بالنسبة إليه، يوتوبيا رومانتيكية ومصدراً للحكمة يقف موقف النقيض من أمريكا البرجوازية التي تقيس كل شيء بمقياس المصلحة المادية. وقد عالج جبران، الذي لا نشك باطلاعه الجيد على أعمال إيميرسون، هذا الموضوع نفسه في كتاباته باللغة الإنكليزية، ولكن أي قارئ منصف سيرى أن أعمال جبران تمتاز بمحتوى فلسفي أكثر غنى وعمقاً.

ولعله من المناسب أيضاً، ونحن نتحدث عن أعمال جبران في مرحلة الكتابة باللغة الإنكليزية، أن نشير إلى أنها امتازت من كتاباته باللغة العربية بصورها الفنية التجريدية ورمزيتها التي تختلف عن رمزية أعمال المرحلة الأولى. ويكفي للتدليل على ذلك أن يقارن القارئ بين مجموعة **دمعة وابتسامة** من المرحلة الأولى و **آلهة الأرض** من المرحلة الثانية لتتجلى له صحة مانقول تماماً.

إن قلق المتمرد وعصيانه ورفضه للتقاليد، وكل ذلك مما تميزت به أعمال المرحلة الأولى، ينزاح في المرحلة الثانية ليفسح المجال لحكمة الفيلسوف وهدوئه العميق، فيتخلى جبران في هذه المرحلة تماماً عن أفكار نيتشه، ويدعو بطل أعماله، الذي يقوم بدور المعلم، الناس إلى الخير والحق والجمال، ويعلّمهم أن ظلام الليل يخفي في طياته فجراً جديداً. ويتغير موقف الكاتب من الناس فيحل حبه لهم وفهمه لإنسانيتهم محل ما كان يبديه نحوهم من كره وما يظهره تجاههم من استعلاء، إنه يرى الآن أن الحكمة والمعرفة هما وحدهما اللتان تعطيان الإنسان الحق في أن يمتلك الحرية، وتملآن قلبه بالمحبة.

خاتمة

قد لا ينطوي هذا التوصيف والتصنيف لأعمال جبران خليل جبران على جديد كان مجهولاً من قبل، ولكنه يظهر بالتأكيد الترابط العضوي بين أعماله في مرحلتي إبداعه المشار إليهما، ويقدم تفسيراً مقبولاً لأسباب انتقاله من الكتابة باللغة العربية إلى الكتابة باللغة الإنكليزية. إن أدب جبران المكتوب باللغة الإنكليزية لا يعني بحال من الأحوال انتقال جبران من موقع إلى موقع، ومن أدب قومي إلى أدب قومي آخر، بل هو رسالة شاعر حكيم نبي لبناني عربي شرقي، بلغ حد النضج، إلى العالم الجديد، تحمل أسمى روحانيات الشرق، وأنبل مشاعره الإنسانية التي كوّنها عبر تاريخه المديد العريق، وتحمل حكمة الشرق العظيم إلى العالم المغرق في ماديته، المفتقر إلى المحبة الإنسانية الشاملة.

لقد مدَّ جبران، بانتقاله إلى الكتابة باللغة الإنكليزية، جسراً من المحبة، وفتح ميداناً للتفاهم والتآلف بين الناطقين بها وبين الشرق العربي الذي مثّلته حفنة العنادل المهاجرة التي كان جبران أبرزها حضوراً وأعذبها شدواً. ولأن ما كتبه جبران بالإنكليزية كان غنياً بروح الوطن الأم، فقد استقبل في وطنه مثلما استقبلت كتابات أديبنا بالعربية، ولأن ما كتبه جبران بالإنكليزية كان غنياً بالمحبة الإنسانية الشاملة، فقد استقبل في وطنه الثاني أمريكا كما استقبل في وطنه الأم لبنان. وكما ألهم جبران ملايين العقول في وطنه العربي الحكمة والمحبة وعشق الحرية، ألهم ملايين العقول على امتداد العالم واتساعه هذه المثل السامية. يقول جبران في كتاب **النبي**:

«الحق أقول لكم إن الحياة تكون بالحقيقة ظلمة حالكة إذا لم ترافقها الحركة، والحركة تكون عمياء لابركة فيها إن لم ترافقها المعرفة، والمعرفة تكون سقيمة إن لم يرافقها العمل، والعمل يكون باطلاً وبلا ثمر إن لم يقترن بالمحبة»[١٨].

---

(١٨) المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران المعربة عن الإنكليزية، ص ٩٧.

• تُعْنَى سلسلة «**أوراق عربية**» بنشر مادة فكرية ميسّرة لقاعدة واسعة من القرّاء، في موضوعات وشؤون مختلفة (سياسية، اجتماعية، اقتصادية، لغوية، إعلامية . . .)

• تسعى سلسلة «**أوراق عربية**» إلى تنمية تقاليد القراءة لدى الشباب، وبالتالي ربط قرّائها بالقضايا والإشكاليات الكبرى التي تشغل النُّخَبَ والرأي العام، وتتصل بالمصير والمستقبل في وطننا العربي، والعالم من حولنا.

أوراق عربية ٣٢

في هذه الورقة، يُضيء الباحث سيرة جبران، إنساناً، وشاعراً ورسّاماً، وحكيماً، ويُظهر الترابط العضوي بين أعماله في سنوات إبداعه، ولا سيما المكتوب باللغة الإنكليزية. ويرى الباحث في نتاج جبران، رسالة شاعر حكيم نبي لبناني عربي شرقي، بلغ حد النضج، إلى العالم الجديد. رسالة تحمل أسمى روحانيات الشرق، وأنبل مشاعره الإنسانية التي كوّنها عبر تاريخه المديد العريق، وتحمل حكمة الشرق العظيم إلى العالم المغرق في ماديته، المفتقر إلى المحبة الإنسانية الشاملة.

الثمن: دولاران
أو ما يعادلهما

ISBN 978-9953-82-552-6

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣
الحمراء ـ بيروت ٢٠٣٤ ٢٤٠٧ ـ لبنان

تلفون: ٧٥٠٠٨٤ ـ ٧٥٠٠٨٥ ـ ٧٥٠٠٨٦ ـ ٧٥٠٠٨٧ (٩٦١١+)

برقياً: «مرعربي» ـ بيروت

فاكس: ٧٥٠٠٨٨ (٩٦١١+)

e-mail: info@caus.org.lb

Web site: http://www.caus.org.lb